

الفوائد الندية

من يتم خير البرية ﷺ

جمع وترتيب

أبو عمر المصري الشافعي الأزهري
سالم جمال الهنداوي

الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض، وجعل الظلمات والنور وابتدع الجواهر والأعراض، وركب الصور والأجساد، وقضى الموت والحياة، وقدر المعاش والمعاد، وأعطى من شاء من السمع والبصر والفؤاد، ومن شاء منهم المعرفة والعقل والنظر والاستدلال، ومن شاء منهم الهداية والرشاد، وبعث الرسل بما شاء من أمره ونهيه، مبشرين بالجنة من أطاعه، ومنذرين بالنار من عصاه، وأيدهم بدلائل النبوة وعلامات الصدق؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

وخصنا بالنبي المكين، والرسول الأمين، سيد المرسلين، وخاتم النبيين أبي القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، أفضل خلقه نفسا، وأجمعهم لكل خلق رضي في دين ودنيا، وخيرهم نسبا، وأشرفهم دارا، وأرسله بالهدى ودين الحق إلى كافة المكلفين من الخلق.

فتح به رحمته، وختم به نبوته، واصطفاه لرسالته، واجتباه لبيان شريعته، ورفع ذكره مع ذكره، وأنزل معه كتابًا عزيزًا، وقرآنًا كريمًا ، مباركًا مجيدًا، دليلاً مبينًا، وحبلاً متينًا، وعلمًا زاهرًا، ومعجزًا باهرًا، اقترن بدعوته أيام حياته، ودام في أمته بعد وفاته.

وأمره فيه بأن يدعو مخالفيه إلى أن يأتوا بمثله، والعربية طبيعتهم، والفصاحة جبلتهم، ونظم الكلام صنعتهم فعجزوا عن المعارضة، وعدلوا عنها إلى المسايفة التي هي أصعب مما دعاهم إليه، وتحداهم به، كما قال عز وجل: ﴿ قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: ٨٨]، مع سائر ما آتاه الله وحباه من المعجزات الظاهرات، والبينات الباهرات ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

فبلغ الرسالة، وأدى النصيحة، وأوضح السبيل، وأنار الطريق، وبين الصراط المستقيم، وعبد الله حتى أتاه اليقين.

فصلوات الله عليه، وعلى آله الطيبين، كلما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون، أفضل صلاة وأزكاها، وأطيبها وأنماها[١].

أما بعد:

١ دلائل النبوة، البيهقي (١/٦٩).

إن سيرة سيدنا محمد ﷺ كنزٌ زاخر بكثير من اللآلئ والدرر، فلا يجب علينا أن نغفل أو نتغافل عنها أبدًا، بل يجب علينا أن نبحث فيها عن كل شيء؛ لأن نبينا ﷺ هو الأسوة والقدوة لنا في كل شيء، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ [الأحزاب: ٢١].

قال الإمام ابن كثير –رحمه الله–:

هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله؛ ولهذا أمر الناس بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب، في صبره ومصابرته، ومرابطته ومجاهدته، وانتظاره الفرج من ربه، عز وجل، صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين؛ ولهذا قال تعالى للذين تقلقوا وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي: هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله؟ ولهذا قال: ﴿ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ [الأحزاب: ٢١][١].

١ تفسير ابن كثير (٦/٣٩١).

العالم قبل محمد ﷺ

لقد كانت البشرية قاطبة تعيش في حالة من الانحدار الشديد في كل شيء إلا ما نَدُر، تدني في الأخلاق والقيم والمعاملات والعقائد.

حتى عبد الإنسان الحجر والشجر والنجوم والكواكب من دون الله، وبغى وتعدى على أخيه الإنسان، فربما يسفك دمه، أو يستعبده ويذله، أو يغتصب ماله أو أرضه، أو يهتك عرضه.

وكان البقاء للأقوى حينئذ، وكأنه عالم الغاب وليس عالم الإنسانية الفاضلة، التي شرفها الله عز وجل وكرمها واستخلفها في الأرض.

أراد الله عز وجل أن يُرسل إلينا نبيًا كريمًا يختم به النبوات والرسالات السماوية، ووصفه بوصفٍ جامع لرسالته ودعوته، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، وقال ﷺ عن نفسه: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً**»[١].

فمحى الله عز وجل به الظلم والجهل والطغيان، وصاغ ﷺ بالإسلام إنسانًا جديدًا في سلوكه وتفكيره وأخلاقه وعقيدته، فغير هذا النبي الكريم ﷺ هو وأصحابه الكرام -رضي الله عنهم أجمعين- معالم الدنيا بأسرها وفتحوا البلاد وقلوب العباد بكلمة التوحيد التي فهموها جيدًا وعملوا بمقتضاها بصدق وإخلاص وتفانٍ.

قال الشيخ محمد الغزالي -رحمه الله-:

وقد كانت رسالة محمد بن عبد الله ﷺ أخطر ثورة عرفها العالم للتحرر العقلي والمادي، وكان جند القرآن أعدل رجال وعاهم التاريخ، وأحصى فعالهم في تدويخ المستبدين، وكسر شوكتهم، طاغية إثر طاغية[٢].

ونريد أن نقف مع جانب من حياته ﷺ ألا وهو مرحلة اليتم، لنتأمل ما هي الحكمة في نشأته ﷺ يتيمًا، يفقد أباه ثم أمه ثم جده ليتولى عمه رعايته إلى أن يشب ويكبر ﷺ.

---

١ أخرجه مسلم (٢٥٩٩)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٢١).

٢ فقه السيرة، الشيخ/ محمد الغزالي (٦٢).



زواج عبد الله بن عبد المطلب من آمنة بنت وهب

كان عبد الله بن عبد المطلب من أحب ولد أبيه إليه، فزوّجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، وسنه ثماني عشرة سنة، وهي يومئذ من أفضل نساء قريش نسبًا وموضعًا.

ولما دخل عليها حملت بالرسول ﷺ، ولم يلبث أبوه أن توفي بعد الحمل بشهرين، ودفن بالمدينة عند أخواله بني عدي بن النجار، فإنه كان قد ذهب بتجارة إلى الشام فأدركته منيته بالمدينة وهو راجع[١].

ميلاده ﷺ ونشأته:

نشأ ﷺ يتيمًا، فقد مات أبوه عبد الله وأمه حامل به لشهرين فحسب، ولما أصبح له من العمر ست سنوات ماتت أمه آمنة فذاق ﷺ في صغره مرارة الحرمان من عطف الأبوين وحنانهما، وقد كفله بعد ذلك جده عبد المطلب، ثم توفي ورسول الله ﷺ ابن ثمان سنوات، فكفله بعد ذلك عمه أبو طالب حتى نشأ واشتد ساعده، وإلى يتمه أشار القرآن الكريم بقوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ [الضحى:٦][٢].

وداع وفراق مؤلم حقًا:

إن نبينا ﷺ قد فقد أباه لكنه لم يره حتى يتعلق به كثيرًا، ولكنه رأى أمه آمنه وجلس معها كثيرًا، وكعادة الأمهات ، كم أطعمته وألبسته واستراح في حجرها، كم نظر إليها، كم داعبته بيديها وكلامتها، أظنه ﷺ تعلق بأمه كعادة الصغار، ولأنه لم يجد بجوارها الأب فكان شديد التعلق بها، ولنرى كيف ودع نبينا ﷺ أُمَهُ، الأم التي هي رمز الحنان والدفء والعطاء.

يقول الدكتور/ محمد حسين هيكل –رحمه الله–:

«إن آمنة خرجت بابنها إلى المدينة لتري الغلام فيها أخوال جدّه من بني النجّار، وأخذت معها أمّ أيمن الجارية التي خلّفها عبد الله من بعده، فلما كانوا بها أرت الغلام البيت الذي مات أبوه فيه والمكان الذي دفن به؛ فكان ذلك أوّل معنى لليتم انطبع في نفس الصبي.

---

١ نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، الخضري (٩).

٢ السيرة النبوية دروس وعبر، د/ مصطفى السباعي (٣٤).

ولعل أمّه حدّثته طويلاً عن هذا الأب المحبوب الذي غادرها بعد مقامه معها أيامًا معدودة ليجيئه بين أخواله أجله، فقد كان النبي ﷺ بعد هجرته إلى المدينة يقص على أصحابه حديث تلك الرحلة الأولى إلى المدينة مع أمه، حديث محب للمدينة محزون لمن تحوي القبور من أهله بها.

ولما تم مكثهم بيثرب شهرًا اعتزمت آمنة العودة، فركبت وركب من معها بعيريهما اللذين حملاهما من مكة، فلما كانوا في أثناء الطريق بين البلدين مرضت آمنة بالأبواء وماتت ودفنت بها، وعادت أم أيمن بالطفل إلى مكة منتحبًا وحيدًا، يشعر بيتم ضاعفه عليه القدر فيزداد وحشةً وألما.

لقد كان منذ أيام يسمع من أمه أنات الألم لفقد أبيه وهو ما يزال جنينًا، وها هو ذا قد رأى بعينيه أمه تذهب كما ذهب أبوه وتدع جسمه الصغير يحمل هم اليتم كاملاً»[١].

إن أحدنا حينما يشب ويكبر ويفقد أباه فقط يشعر بهزة عنيفة في حياته، فمن الذي يعاونه في حياته ومستقبله؟ لقد فقد السند قوي والملجأ والملاذ في الملمات، وتكون مرحلة شاقة في حياة أيًا منا.

إن نبينا ﷺ لم يفقد أباه فقط، بل فقد أباه وأمه، وكل ذلك في مرحلة الصغر، والله ما أقسى هذه الأيام والليالي الكثيرة التي مرت على نبينا وحبيبنا ﷺ.

إن الصغير يحتاج إلى حنان ودفء وملاطفة لا يهبها أحد غير الأم، يحتاج أن يشعر بالأمان من كل ما يخيفه ويفزعه، يحتاج أن يأكل ما يشتهى، يحتاج أن يلبس ما يتمناه، يحتاج من يدلله ويلاعبه، يحتاج من يقوم على أمره كله، ككل الصغار، ولكن من أين له بكل ذلك لقد فقد أمه وأباه.

وفي ذلك يقول الإمام ابن كثير –رحمه الله-: «**وهذا أبلغ اليتم وأعلى مراتبه**»[٢].

---

١ حياة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، د/ محمد حسين هيكل (٨١، ٨٢).

٢ السيرة النبوية لابن كثير (٢٠٦).



الفوائد من يتمه ﷺ

لقد شاءت إرادة الله عز وجل أن يولد محمد ﷺ يتيمًا، وكان لذلك من الحكم والفوائد العظيمة التي لا يعلمها إلا الله عز وجل، ومن أهم هذه الفوائد ما يلي:

الفائدة الأولى: قال تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه:٣٩].

شاءت إرادة الله تعالى أن يجعل نبيه محمدًا ﷺ يتيمًا؛ حتى لا تتدخل يد بشرية في تربيته وتوجيهه، كما قال تعالى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه:٤١]، ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾[طه:٣٩]؛ فيكون الله تعالى هو الذي يتولى تربيته، ولا يتلقى أو يتلقن من مفاهيم الجاهلية وأعرافها شيئًا، وإنما يتلقى من لدن حكيم خبير[١].

وقال الدكتور/ زيد بن عبد الكريم:

ولعل يتمه ﷺ كي لا يكون للمبطلين سبيل أن يقولوا إن محمدًا: تلقى دعوته هذه بإرشاد وتوجيه من والده، أو أن دعوته هذه ورثها من أبيه، فقد مات أبوه قبل مولده، ولم يلتقيا فانقطع بذلك توارث الزعامة أو التوجيه والإرشاد الأبوي لها[٢].

لقد اقتضت حكمة الله عز وجل أن يتولى محمدًا ﷺ ويرعاه كما حدث مع أخيه موسى – عليه السلام – من قبل كما قال تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه:٣٩].

قال الإمام ابن الجوزي –رحمه الله– في «زاد المسير»:

قال قتادة: لتُغذى على محبتي وإرادتي. قال أبو عبيدة: على ما أُريد وأُحِبّ.

قال ابن الأنباري: هو من قول العرب: غُذي فلان على عيني، أي: على المَحَبَّة مِنّي. وقال غيره: لتُرَبَّى وتغذى بمرأىً مني، يقال: صنع الرَّجل جاريته: إذا ربَّاها، وصنع فرسه: إذا داوم على علفه ومراعاته[٣].

وقال الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ **[الطور:٤٨].**

قال ابن جرير الطبري –رحمه الله–:

---

١ فقه السيرة النبوية، د/ منير الغضبان (٨٤).

٢ فقه السيرة، د/ زيد بن عبد الكريم الزيد (٤٩).

٣ زاد المسير لابن الجوزي (٣/١٥٨).

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ يا محمد الذي حكم به عليك، وامض لأمره ونهيه، وبلغ رسالاته ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ يقول جل ثناؤه: فإنك بمرأى منا نراك ونرى عملك، ونحن نحوطك ونحفظك، فلا يصل إليك من أرادك بسوء من المشركين[١].

فالله عز وجل هو الذي سيرعى محمدًا ﷺ اليتم الصغير الذى فقد والديه، يربيه بنعمه وآلائه، ويحفظه بعينه التي لا تنام، ويكلؤه ويرعاه، ويحفظه من كل سوء وأذى، وكفى بهذه العناية عناية، وكفى بحفظ الله حفظًا.

قال الشاعر:

وإذا العناية لاحظتك عيونها   نم فالمخاوف كلهن أمان

لا خوف على محمد إذن؛ لأن الله عز وجل معه سيهديه ويرشده إلى الحق، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٦-٨].

الفائدة الثانية: الشعور بالآخرين مفتاح من مفاتيح النجاح:

شاء الله عز وجل لعبده وأحب خلقه إليه اليتم والفقر؛ ليكون على يديه فيما بعد هداية الإنسانية وشفائها من آلامها المادية كاليتم والفقر، والمعنوية التي تتمثل بالضلال والتيه؛ ولهذا كان التوجيه الرباني له على ضوء عطائه له: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [البينة: ٩-١١]

والدعاة الذين لم يعانوا من هذه الآلام والهموم والمحن غير قادرين على فهمها والإحساس فيها ولا معالجتها عندما يملكون ناصية المعالجة[٢].

وقال الدكتور/ مصطفى السباعي –رحمه الله–:

إن في تحمل الداعية آلام اليتم أو العيش، وهو في صغره ما يجعله أكثر إحساسًا بالمعاني الإنسانية النبيلة، وامتلاءً بالعواطف الرحيمة نحو اليتامى أو الفقراء أو المعذبين، وأكثر عملاً لإنصاف هذه الفئات والبر بها والرحمة لها، وكل داعية يحتاج لأن يكون لديه رصيد كبير من العواطف الإنسانية النبيلة التي تجعله يشعر بآلام الضعفاء والبائسين، ولا يوفر له هذا الرصيدَ

---

١ جامع البيان في تأويل القرآن، محمد ابن جرير الطبري (٢٢/٤٨٨).

٢ فقه السيرة النبوية، د/ منير الغضبان (٨٦، ٨٧).

شـيءٌ مثـلُ أن يعـاني في حياتـه بعـض مـا يعانيـه أولئـك المستضـعفون كاليتـامى والفقـراء والمساكين[١].

إن مـن يتـولى قيـادة أمـرٍ مـا، لاسيما الـرئيس لـن يحكـم بالعـدل إلا إذا عـرف أفـراد شعبه ومشاكلهم وما يعانون منه، لابد أن يشعر بهم ويتلمس آلامهم ليداويها، يعرف ما يحتاجه المريض، ويعرف ما يحتاجه الفقير، ويعرف ويقدر طموح الشباب ليعاونهم على تحقيق هذه الآمـال والأهـداف، كـذلك أيضًـا يشـعر بالأرامـل واليتـامى ومـا يحتاجونـه ومـا يقاسـونه في حياتهم.

فإذا كان الحاكم بعيدًا عن هذه الآلام والآمال من أفراد مجتمعه لن يحكم بالعدل أبدًا؛ لأنه غافل أو متغافل عن أمانته التي ولاه الله إياها.

لـذلك نـرى محمـدًا ﷺ يقـول: «**أنـا وكافـل اليتـيم فـي الجنـة هكـذا**» وأشـار بالسـبابة والوسطى، وفرج بينهما شيئًا[٢].

ويقول أيضًا: «**كَافِلُ الْيَتِيمِ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ**» وَأَشَارَ مَالِكٌ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى[٣].

لقد قال نبينا ﷺ ذلك؛ لأنه عاش اليتم وذاق مرارته، فكان نعم المشخص للداء والدواء فصلوات الله وسلامه عليه.

وقال نبينا ﷺ أيضًا: «**السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ، كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ – وَأَحْسِبُهُ قَالَ– وَكَالْقَائِمِ لَا يَفْتُرُ، وَكَالصَّائِمِ لَا يُفْطِرُ**»[٤].

إنهما نوعان من أفراد الأمة والمجتمع، أحدهما من فقدت العائل والسند ألا وهي الأرملة، والآخر المسكين الذي عجز على أن يتحصل على كفايته من طعام وشراب وملبس.

لقد تألم ﷺ بآلامهم كثيرًا فرغب المؤمنون إلى معاونتهم ومساعدتهم مرتبًا جزاء عظيمًا لمن يقوم بمثل هذا الأمر.

الفائدة الثالثة: الله عز وجل خير الحافظين:

---

١ السيرة النبوية دروس وعبر، د/ مصطفى السباعي (٣٨).

٢ أخرجه البخاري (٦٠٠٥).

٣ أخرجه مسلم (٢٩٨٣)، وأحمد في مسنده (٨٨٨١).

٤ أخرجه البخاري (٦٠٠٧)، ومسلم (٢٩٨٢).

قال تعالى: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف:٦٤].

كان من الممكن أن يحيا محمدًا ﷺ -وأستغفر الله من ذلك- كغالب الشباب في عصره من لهو ومرح وعربدة، لكنه نشأ على غير ذلك، بل واشتهر في ربوع مكة كلها «بالصادق الأمين»، إنه حفظ الله عز وجل له.

لقد قرأنا في القرآن قصة موسى – عليه السلام – كيف حفظه الله في التابوت حينما ألقي في اليم، وكيف نجاه الله من بطش فرعون اللعين بسلاح المحبة حينما نظرت إليه زوجة فرعون قالت: ﴿ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ ﴾ [القصص:٩].

وكيف حفظ الله عز وجل يوسف – عليه السلام – حينما ألقاه إخوته في الجب، لم يغرق ولم يهلك، إنه عانى كثيرًا، لكن لننظر إلى النهاية لقد صار عزيز مصر، وفوق ذلك نبيًا من عند الله عز وجل.

إنه حفظ الله عز وجل خير الحافظين، فيجب علينا أن نؤمن بذلك إيمانًا قويًا لا تغيره الأحوال ولا تزعزه الأهوال، أن الله هو الحافظ، وليس المال أو الأرض أو أي عرضٍ آخر.

فإذا أردنا أن تحفظ ذريتنا من بعدنا فعلينا بتقوى الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾ [النساء: ٩].

قال عمر بن عبد العزيز –رحمه الله-: «ما من مؤمن يموت إلا حفظه الله في عقبه وعقب عقبه».

وقال سعيد بن المسيب –رحمه الله– لابنه: «لأزيدن في صلاتي من أجلك رجاء أن أحفظ فيك ».

قال الشيخ محمد الغزالي –رحمه الله-:

إن محمدًا ﷺ يتيم، برز إلى الدنيا بعد ما غادر أبوه الدنيا ليكن، ولنفرض عبد الله بقي حيًا فماذا عسى كان يفعل لابنه؟! أكان يربيه ليهب له النبوة؟! ما كان له ذلك.

إن الأب عنصر واحد من عناصر شتى تتحكم في مستقبل الطفل، وتحفر له في الحياة مجراه، ولو كانت النبوة بالاكتساب ما قربتها حياة الوالد شبرًا، فكيف وهي اصطفاء؟!.



كان يعقوب – عليه السلام – حيًا يرزق، له شيخوخته وتجربته وحكمته بل له نبوته، وقد نظر يومًا ما فلم يجد يوسف قريبًا منه؛ إنه فقده في أخطر فترات العمر، فترة الصبا اللدن، واليفاعة الغضة، ومع فساد البيئات التي احتوت يوسف، فقد كان باطنه ينضح بالتقى والعفاف، كما يتّقد المصباح في أعماء الليل المدلهم، فلما التقى الابن بوالده بعد لأي، رأى يعقوب – عليه السلام – ابنه نبيًا صديقًا.

لقد ولى عبد الله، وترك ابنه يتيمًا، بيد أن هذا اليتيم كان يعد من اللحظة الأولى لأمر جلل، أمر يصبح به إمام المصطفين الأخيار، وما الأب والجد، ما الأقربون والأبعدون، ما الأرض والسماء إلا وسائل مسخّرة لإتمام قدر الله، وإبلاغ نعمة الله من اصطنعه الله[١].

الفائدة الرابعة: خذ بوصية رسول الله ﷺ تسعد وتهنأ:

نشأة الرسول ﷺ في طفولته المبكرة مع أمه لم تكن من باب الصدفة والاتفاق، فقد وجدنا قبل الرسول ﷺ غير قليل من الأنبياء عهد بهم إلى أمهاتهم، أليس في هذا إشارة إلى أهمية الأم وعظيم دورها في تكوين وتربية الأجيال.

فإسماعيل – عليه السلام – عاش في بيت أمه في مكة بعيدًا عن أبيه إبراهيم – عليه السلام – ، وموسى – عليه السلام – عاش في بيت أمه تحن عليه وترعاه وتتابع أحواله، وعيسى بن مريم – عليه السلام – عاش نشأ في بيت أمه، ثم محمد ﷺ نشأ في طفولته مع أمه آمنة بنت وهب.

إن هذا يذكرنا بمكانة الأم في المنزل وفي المجتمع وعظم رسالتها فهي التي تولت تربية عدد من الأنبياء في طفولتهم وهي التي تنشأ هذه الأجيال التي تحتل مكانتها المرموقة في المجتمعات، وحينئذ فاختيار الزوجة له أهميته ومكانته لأنها هي التي ستربي هؤلاء الأولاد وترعاهم، وتوجيههم منذ صغرهم وطفولتهم يكون له الأثر على مستقبلهم وربما مستقبل المجتمع بكامله[٢].

تزوج ذات الدين فهي وصية رسول الله ﷺ:

---

١ فقه السيرة، الشيخ/ محمد الغزالي (٦٢، ٦٣).

٢ فقه السيرة ، د/ زيد بن عبد الكريم (٤٩، ٥٠) نقلاً عن كتاب الرسول العربي المربي، للدكتور/ عبد الحميد الهاشمي.

أخرج الشيخان عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه –، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَلِجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ**»[١].

الشاهد من هذا الحديث:

الترغيب في الزوجة الصالحة، وتفضيلها على غيرها؛ لأن من فقد المرأة الصالحة فقد كل شيء كما يدل عليه قوله ﷺ: «**فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ**»، فقد سمّى النبي ﷺ نكاح ذات الدين ظفرًا، أي: فوزًا وفلاحًا، وحذر من نكاح المرأة التي لا دين لها؛ لأن نكاحها فقرٌ وإن حسبه غنى، وخسارة وإن ظنه كسباً، وفي الحديث عن أنس – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: «**من تزوج المرأة لعزها لم يزده الله إلا ذلاً، ومن تزوجها لمالها لم يزده الله إلا فقراً، ومن تزوجها لحسبها لم يزده الله إلاّ دناءة، ومن تزوج امرأة لم يتزوجها إلاّ ليغض بصره، أو يحصن فرجه، أو يصل رحمه بارك الله له فيها، وبارك لها فيه**»[٢] أخرجه الطبراني في الأوسط، وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**لا تزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يردِيَهُنَّ، ولا تزوجوهن لمالهن فعسى مالهن أن يطغيهن ولكن تزوجوهن على الدين، ولأمة خرقاء سوداء ذات دين أفضل**»[٣] أخرجه

---

١ أخرجه البخاري (٥٠٩٠)، ومسلم (١٤٦٦).

٢ قال العلامة الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١٦٨/٣): ضعيف جدًا.

رواه الطبراني في «الأوسط» (رقم ٢٥٢٧) عن عبد السلام بن عبد القدوس عن إبراهيم بن أبي عبلة قال: سمعت أنس بن مالك يقول: فذكره مرفوعًا وقال: لم يروه عن إبراهيم إلا عبد السلام.

قلت: وهو ضعيف جدًا ضعفه أبو حاتم وقال أبو داود: عبد القدوس ليس بشيء وابنه شر منه، وقال ابن حبان في «الضعفاء» (١٥٠/٢ – ١٥١) : يروي الموضوعات، وروى عن إبراهيم بن أبي عبلة.

قلت: فذكر هذا الحديث، فاقتصار الهيثمي (٢٥٤/٤) على قوله: وهو ضعيف قصور أوذهو ل، وكذلك أشار المنذري في «الترغيب» (٧٠/٣) إلى أنه ضعيف.

٣ أخرجه ابن ماجه في سننه (١٨٥٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٣٤٦٩)، وقال العلامة الألباني –رحمه الله– في «السلسلة الضعيفة» (١٧٢/٣): ضعيف، أخرجه ابن ماجه (١٨٥٩) والبيهقي (٨٠/٧) عن الإفريقي عن عبد الله بن يزيد عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: فذكره.

قلت: وهذا إسناد ضعيف من الإفريقي، وقد مضى في أول السلسلة، وقال البوصيري في «الزوائد» (ق ١/١١٧) ما ملخصه: هذا إسناد ضعيف، فيه الإفريقي واسمه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الشعباني وهو ضعيف، وعنه رواه ابن أبي عمر وعبد بن حميد في «مسنديهما»، وكذا رواه سعيد بن منصور، وله شاهد في «الصحيحين» وغيرهما من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه –.

ابن ماجة، وعن أبي أمامة – رضي الله عنه – أنه ﷺ كان يقول: «**مَا اسْتَفَادَ الْمُؤْمِنُ بَعْدَ تَقْوَى اللَّهِ خَيْرًا لَهُ مِنْ زَوْجَةٍ صَالِحَةٍ، إِنْ أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ، وَإِنْ نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتْهُ، وَإِنْ أَقْسَمَ عَلَيْهَا أَبَرَّتْهُ، وَإِنْ غَابَ عَنْهَا نَصَحَتْهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهِ**»[١] أخرجه ابن ماجه[٢].

إن المرأة المؤمنة التي تربت على أخلاق الإسلام وآدابه لهي الجديرة بحق أن تُخرج لنا الرجال الأفذاذ الذين يرفعون راية الإسلام خفاقة في الدنيا بأسرها؛ لأنها تعرف كيف تربي صغارها، وكيف تنصحهم، وتحثهم على الفضائل والتخلق بمعالي الأخلاق.

فيجب على شبابنا أن يأخذ بوصية رسول الله ﷺ حتى يسعد في الدنيا والآخرة؛ لأنه إن كتب الله عز وجل له الحياة معها سيحيا حياة هادئة مطمئنة، وإن توفاه الله سيخلف من يقوم على تربية أولاده، وكم رأينا من نساء مؤمنات توفي أزواجهن فقمن على صغارهن حتى كبروا وسادوا مجتمعاتهم.

الفائدة الخامسة: الوالدان نعمة فاحفظها بالبر والإحسان:

قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

أي: وأَمَر ربك –أيها الإنسان– وألزم وأوجب أن يفرد سبحانه وتعالى وحده بالعبادة، وأمر بالإحسان إلى الأب والأم، وبخاصة حالةُ الشيخوخة، فلا تضجر ولا تستثقل شيئًا تراه من أحدهما أو منهما، ولا تسمعهما قولا سيئًا، حتى ولا التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيئ، ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح، ولكن ارفق بهما، وقل لهما –دائما– قولا لينًا لطيفًا.

وكُنْ لأمك وأبيك ذليلاً متواضعًا رحمة بهما، واطلب من ربك أن يرحمهما برحمته الواسعة أحياءً وأمواتًا، كما صبرا على تربيتك طفلاً ضعيف الحول والقوة[٣].

١ أخرجه ابن ماجه في سننه (١٨٥٧)، وقال الألباني: ضعيف، «السلسلة الضعيفة» (٩/٤١٣).

٢ منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري، حمزة محمد قاسم (٥/٩٨، ٩٩).

٣ التفسير الميسر (٢٨٤).

أخرج البخاري في «الأدب المفرد» عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ – رضي الله عنه – قَالَ: «**رِضَا الرَّبِّ فِي رِضَا الْوَالِدِ، وَسَخَطُ الرَّبِّ فِي سَخَطِ الْوَالِدِ**»[١].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رضي الله عنه – قَالَ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ لَهُ وَالِدَانِ مُسْلِمَانِ يُصْبِحُ إِلَيْهِمَا مُحْتَسِبًا، إِلَّا فَتَحَ لَهُ اللَّهُ بَابَيْنِ – يَعْنِي: مِنَ الْجَنَّةِ – وَإِنْ كَانَ وَاحِدًا فَوَاحِدٌ، وَإِنْ أَغْضَبَ أَحَدَهُمَا لَمْ يَرْضَ اللَّهُ عَنْهُ حَتَّى يَرْضَى عَنْهُ**»، قِيلَ: وَإِنْ ظَلَمَاهُ؟ قَالَ: «**وَإِنْ ظَلَمَاهُ**»[٢].

وعن سَعِيدُ بْنُ أَبِي بُرْدَةَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي يُحَدِّثُ، أَنَّهُ شَهِدَ ابْنَ عُمَرَ وَرَجُلٌ يَمَانِيٌّ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، حَمَلَ أُمَّهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، يَقُولُ:

إِنِّي لَهَا بَعِيرُهَا الْمُذَلَّلُ ... إِنْ أُذْعِرَتْ رِكَابُهَا لَمْ أُذْعَرِ.

ثُمَّ قَالَ: يَا ابْنَ عُمَرَ أَتُرَانِي جَزَيْتُهَا؟ قَالَ: «**لَا، وَلَا بِزَفْرَةٍ وَاحِدَةٍ**»[٣].

فيجب علينا أن نتذكر نعمة الوالدين ونشكر الله عز وجل عليها، كم من أناس فقدوا أبائهم وأمهاتهم، والأب والأم لهما أثر كبير في حياة أولادهما، تذكر هذه النعمة وقابلها بالبر والإحسان.

وقَالَ أَبُو الدَّرْدَاء – رضي الله عنه –: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**الوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الجَنَّةِ، فَإِنْ شِئْتَ فَأَضِعْ ذَلِكَ البَابَ أَوْ احْفَظْهُ**»[٤].

وعَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِ يكَرِبَ – رضي الله عنه – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: قَالَ «**إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ ثَلَاثًا، إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِآبَائِكُمْ، إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِالْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبِ**»[٥].

ورحم الله من قال:

لأمك حق لو علمت كبير ... كثيرك يا هذا لديه يسير

---

١ أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٢)، وقال الشيخ الألباني : حسن موقوفًا، وصح مرفوعًا، وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٤٤٧).

٢ أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٧)، وقال الشيخ الألباني : ضعيف.

٣ أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١١)، وقال الشيخ الأألباني: صحيح.

٤ أخرجه الترمذي في سننه (١٩٠٠)، وابن ماجه في سننه (٣٦٦٣)، وأحمد في مسنده (٢٧٥١١).

٥ أخرجه ابن ماجه في سننه (٣٦٦١).

فكم ليلةٍ باتت بثقلك تشتكي   لَها من جواها أنَّةٌ وزفير
وفِي الوضع لو تدري عليك مشقة   فكم غُصصٍ منها الفؤاد يطير
وكم غسلت عنك الأذى بيمينها   ومن ثديها شُربٌ لديك نَمِير
وكم مرّة جاعت وأعطتك قوتَها   حُنُوًّا وإشفاقًا وأنت صغير
فضيّعتها لَما أسنّت جهالـة   وطال عليك الأمر وهو قصير
فدونك فارغب فِي عميم دعائها   فأنت لِما تدعو إليه فقير

الفائدة السادسة: كن رفيق النبي ﷺ في الجنة:

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ – رضي الله عنه – قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «**أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا، وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى**»[١].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه – قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**كَافِلُ الْيَتِيمِ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ**»، وَأَشَارَ مَالِكٌ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى[٢].

قال الإمام النووي –رحمه الله-:

قَوْلُهُ ﷺ: «**كَافِلُ الْيَتِيمِ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّة**» كَافِلُ الْيَتِيمِ: الْقَائِمُ بِأُمُورِهِ مِنْ نَفَقَةٍ وَكِسْوَةٍ وَتَأْدِيبٍ وَتَرْبِيَةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَهَذِهِ الْفَضِيلَةُ تَحْصُلُ لِمَنْ كَفَلَهُ مِنْ مَالِ نَفْسِهِ أَوْ مِنْ مَالِ الْيَتِيمِ بِوِلَايَةٍ شَرْعِيَّةٍ، وَأَمَّا قَوْلُهُ: «**لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ**» فَالَّذِي لَهُ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا لَهُ كَجَدِّهِ وَأُمِّهِ وَجَدَّتِهِ وَأَخِيهِ وَأُخْتِهِ وَعَمِّهِ وَخَالِهِ وَعَمَّتِهِ وَخَالَتِهِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَقَارِبِهِ، وَالَّذِي لِغَيْرِهِ أَنْ يَكُونَ أَجْنَبِيًّا[٣].

قال الإمام ابن حجر –رحمه الله–:

قَالَ شَيْخُنَا فِي شَرْحِ التِّرْمِذِيِّ لَعَلَّ الْحِكْمَةَ فِي كَوْنِ كَافِلِ الْيَتِيمِ يُشْبِهُ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ أَوْ شُبِّهَتْ مَنْزِلَتُهُ فِي الْجَنَّةِ بِالْقُرْبِ مِنَ النَّبِيِّ أَوْ مَنْزِلَةِ النَّبِيِّ لِكَوْنِ النَّبِيِّ شَأْنُهُ أَنْ يُبْعَثَ إِلَى قَوْمٍ لَا يَعْقِلُونَ أَمْرَ دِينِهِمْ فَيَكُونُ كَافِلًا لَهُمْ وَمُعَلِّمًا وَمُرْشِدًا وَكَذَلِكَ كَافِلُ الْيَتِيمِ يَقُومُ بِكَفَالَةِ مَنْ لَا يَعْقِلُ أَمْرَ دِينِهُ بَلْ وَلَا دُنْيَاهُ وَيُرْشِدُهُ وَيُعَلِّمُهُ وَيُحْسِنُ أَدَبَهُ فَظَهَرَتْ مُنَاسَبَةُ ذَلِكَ أ.هـ[٤].

---

١ أخرجه البخاري (٥٣٠٤).

٢ أخرجه مسلم (٢٩٨٣).

٣ شرح صحيح مسلم، النووي (١٨/١١٣).

٤ فتح الباري، ابن حجر (١٠/٤٣٧).

وقال المناوي –رحمه الله–:

وحق على من سمع هذا الحديث العمل به ليكون رفيق المصطفى ﷺ في الجنة ولا منزلة أفضل من ذلك وفيه إشارة إلى أن بين درجة النبي ﷺ وكافل اليتيم قدر تفاوت ما بين السبابة والوسطى، ومن كلام داود – عليه السلام –: «**كن لليتيم كالأب الرحيم، واعلم أنك كما تزرع تحصد**»[1].

أخرج الطبراني في الأوسط عَنْ أَبِي أُمَامَةَ – رضي الله عنه – قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «**مَنْ مَسَحَ رَأْسَ يَتِيمٍ كَانَ لَهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ حَسَنَةٌ**»[2].

وأخرج أحمد في مسنده أَبِي أُمَامَةَ – رضي الله عنه – أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**مَنْ مَسَحَ رَأْسَ يَتِيمٍ لَمْ يَمْسَحْهُ إِلَّا لِلَّهِ كَانَ لَهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ مَرَّتْ عَلَيْهَا يَدُهُ حَسَنَاتٌ، وَمَنْ أَحْسَنَ إِلَى يَتِيمَةٍ أَوْ يَتِيمٍ عِنْدَهُ كُنْتُ أَنَا وَهُوَ فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ، وَقَرَنَ بَيْنَ أُصْبُعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى**»[3].

قال الشاعر:

يا كافلَ الأيتامِ، كأسُكَ أصبحتْ
مَلأَى، وصار مزاجُها تسنيما
ما اليُتْمُ إلاَّ ساحةٌ مفتوحةٌ
منها نجهِّز للحياةِ عظيما
ونحوِّل الحرمانَ فيها نعمةً
كُبْرى تُزيل عن الفؤادِ هموما
قَسَمَ الإلهُ على العباد حظوظَهم
فالكلُّ يأخذ حَظَّه المقسوما
وسعادةُ الإنسانِ أن يرضى بما
قَسَمَ الإلهُ، ويُعلنَ التَّسليما

---

١ فيض القدير، المناوي (٤/٥٤٢).

٢ الأوسط، الطبراني (٣١٦٦).

٣ مسند أحمد، (٢٢١٥٣).

قالوا: اليتيمُ، فقلتُ: أَيْتَمُ مَنْ أرى

مَنْ كان للخلُقِ النَّبيل خَصيما

قالوا: اليتيمُ، فقلتُ أَيْتَمُ مَنْ أرى

مَنْ عاشَ بين الأكرمينَ لَئيما

كم رافلٍ في نعمةِ الأبويْن، لم

يسلكْ طريقاً للهدى معلوما

يا كافلَ الأيتام، كفُّكَ واحةٌ

لا تُنْبِتُ الأشواكَ والزَّقُّوما

ما أَنْبَتَتْ إلاَّ الزُّهورَ نديَّةً

والشِّيحَ والرَّيحانَ والقيْصُوما

أَبْشِرْ فإنَّ الأَرْضَ تُصبح واحةً

للمحسنين، وتُعلن التكريما

أبشرْ بصحبةِ خيرِ مَنْ وَطِىءَ الثرى

في جَنَّةٍ كمُلَتْ رضاً ونَعيما

قالوا: اليتيمُ، وأرسلوا زَفَراتهم

وبكوا كما يبكي الصحيحُ سَقيما

قلت: امنحوه مع الحنانِ كرامةً

فلرُبَّ عَطْفٍ يُوْرِثُ التَّحطيما

ولَرُبَّ نَظْرةِ مُشفقٍ بعثتْ أسىً

في قَلبه، جَعَلَ الشفيقَ مَلُوما

قالوا: اليتيمُ، فَمَاج عطرُ قصيدتي

وتلفَّتتْ كلماتُها تعظيما

وسمعْتُ منها حكمةً أَزَليَّةً

أهدتْ إِليَّ كتابَها المرقوما:

حَسْبُ اليتيم سعادةً أنَّ الذي

نشرَ الهُدَى في الناسِ عاشَ يَتيما

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد ﷺ أفضل صلاة وأزكها وأنماها إلى يوم الدين، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وكتبه

الفقير إلى عفو الرحمن الهادي

أبو عمر المصري الشافعي الأزهري

سالم جمال الهنداوي

مصر – المنصورة